رواية
سُكُونُ الرُّوحْ
إبراهيم الشملان
Ibrahim AL-Shamlan
2017

رواية قصيرة

سُكُونُ الرُّوحْ

إبراهيم الشملان

2017

" ولنبلونكم بشيء من الخوف .. " الآية [البقرة:155]

ازدادت نبضات قلبها وتسارعت أنفاسها وكأنها قطعت شوطاً كبيراً في سباق الحياة رغم أنها لتوّها دخلت في العشرين من عمرها ..

كانت تسأل نفسها مراراً لمَ هذا الشعور ؟

الخوف من لا شيء ..

هل يعقل أن أمتلك حاسة تدعى الخوف من كل شيء ومن لا شيء ؟

حاولتُ كثيراً أن أكتشف سبب هذه الرهبة وأتجاوز نتائجها المؤلمة ولكن دون جدوى فأنا لم أتغير أبداً بل ازددتُ خوفاً في الآونة الأخيرة ..

أنظر إلى صديقاتي وإلى الناس من حولي ، صحيح أن لكل واحد منهم مشكلته التي يحاول أن يخفيها عن الناس إلا إنني أشعر بأن مشكلتي هي

الأكبر فهُم – مع مشكلاتهم الكثيرة – لا ينتابهم الخوف من كل شيء مثلي ..

الأحلام المفزعة التي تطاردني وشعوري الغريب بأن أحداً ما يناديني فألتفتُ فلا أجده والأبواب التي أقفلها ثم ينتابني إحساس بالنسيان فأعود إليها لأتأكد من اقفالي لها ..

وفي سريري أغلق عيني واغطي رأسي وقدمي لأحمي نفسي من تخيلات مخيفة فأعاني من حر فراشي وغطائي ولكن ذلك بالنسبة لي أهون بكثير من الأشياء الغريبة التي أراها في ظلام غرفتي وانا اعلم بأن هذه الأوهام التي أخلقها بنفسي لن تؤذيني لكن عقلي اعتاد على بناء هذه التخيلات المخيفة ..

حتى وصلتُ إلى مرحلة من الارهاق الذي لا أستطيع دفعه حتى بالنوم والاسترخاء ..

فكلما نمتُ استيقظتُ وكأني أحمل على ظهري جبلاً من الحجارة

فإلى أي مدى سأحتمل هذا الألم .. ؟

" العطاء له فرحٌ لا يتذوقه سوى الذين يفعلون الخير للناس بحب ورحمة فيُنقذون من غياهب الخوف وظلمات الفزع ليخرجوا من بؤس الحياة "

كانت ليلة مفزعة جداً مليئة بالمخاوف التي خلقتها الفتاة بنفسها وهذه ضريبة الخيال ، إن الكثير منا يحب الخيال ويرى فيه تسلية لهمه لكن المشكلة تكمن في تعدي هذا الخيال فيخترق حاجز الأمان ..

كانت زهراء لطيفة مع الناس وطيبة في المعاملةعلى الرغم من قلة اختلاطها بهم .

وتحاول أن تخفي ذلك الجانب من شخصيتها ، تتكلم عن الشجاعة وعن القوة حتى ظن الذين من حولها أنها ذات شخصية قوية بل تمنت بعض النساء أن تتشبّه بناتهن بها ، وكانت تقول في نفسها :

لو تعلم النسوة ما بداخلي من الخوف لما تمنين ذلك ابدا .

وكانت زهراء تحاول أن تنفذ وصية والدها حين قال لها :

يا بنيتي .. اختلطي بالنساء وتحدثي إليهن وابتعدي عن العزلة فهذه العزلة تورث الخوف والفزع في داخلك وإن الجماعة تبدد هذه المخاوف ..

يالها من نصيحة رائعة لفتاة تعاني من الخوف دائما وهي حقيقة ، إذ إن الخوف من الأشياء سببه الأول يكمن في العزلة الطويلة ..

لكنها مع تلك النصائح مازالت مترددة في فعل الكثير من الأشياء التي تفعلها الفتيات دون خوف مما جعلها تشعر بالجبن والكآبة ..

في غرفتها الصغيرة كانت تغلق على نفسها الباب والنافذة ايضا حتى في النهار وكأنها تكره أشعة الشمس وكانت بعيدة عن البكاء فرغم الخوف المتغلغل في جسدها الا انها قد فقدت قدرتها على البكاء ..

الام : يابنتي اخرجي من غرفتك .. افتحي النافذة .. دعي الشمس تشق ظلمة البؤس والكآبة ..

ليتني أعرف سبب هذه التصرفات .. (تفتح الأم النافذة) انظري الى الفتيات على ضفة النهر .. يعملن ويلعبن ويتحدثن .. اذهبي اليهن ..

زهراء : هل تريدينني أن أخدع نفسي والتظاهر بالسرور والقوة والفرح ؟

(ثم غطت رأيها بالوسادة)

اقتربت الأم من ابنتها وقالت لها : الم تري زهرة فواحة على ضفة النهر ؟

(رفعت زهراء الوسادة وقالت : هناك الكثير من الزهور .. ولكن لم تسألي وأنت تعلمين بوجودها ؟)

الأم : يابنتي كنت في يوم من الأيام مع والدك نتمشى على ضفة النهر وكان الخوف والحزن قد قيدني حتى ما عدت أرى زهرة أو نهراً ولا أجد متعة بأي شيء جميل من حولي ..

فسألني والدك نفس السؤال وكانت اجابتي تشبه اجابتك لكنه قال لي : إن هذه الزهرة على ضعفها وخوفها من أن تسحق يقدم إنسان أو تأكل بفم دابة إلا إنها مازالت تقدم عطرها .. فهمت رسالتها في الحياة فلم تترك لهذه المخاوف أو العواصف فرصة للنيل منها ..

إننا يا عزيزتي منذ الوهلة الاولى ونحن نعاني من الحياة والمشكلة أن رسالتنا تتوقف عند كل مصيبة وكأننا سننتهي ولن نقف مرة أخرى على أقدامنا ..

ابتسمت زهراء وقالت :

اه يا امي .. كم أحتاج إلى أبي ..

(وضعت الام يديها على رأس ابنتها وابتسمت هي الأخرى)

شعرت زهراء بدفء يديها وكأنها للمرة الأولى بعد وفاته والدها تشعر بهذا الدفء

" خلال رحلتنا في الحياة نرى الكثير من الظلم والأنانية ونرى القليل من الذين يمارسون هذه الأشياء يحاولون اصلاح الخطأ وحين تجد من يحاول طلب العفو بكل صدق بعد أن ظلمك فاعف عنه لأنه من الصنف النادر "

في الوقت الذي كانت زهراء في سريرها تتذوق دفء الحنان طُرق الباب ..

خرجت الأم لترى من الطارق وحين فتحت الباب رأت رجلاً عجوزاً يطلب الطعام والماء وعلى وجهه علامات وعثاء السفر وكانت ثيابه رثّة ينظر بعينيه المختبئتين تحت حاجبيه الغليظين إلى الأرض ويقول :

يابنتي هل لي ببعض الطعام والشراب ؟

الأم : تفضل أيها الشيخ ..

ضرب العجوز بعصاه الأرض ليثبتها ويتكأ عليها ليدخل إلى المنزل فيرى كرسيا من الخشب فجلس عليه وزفر بقوة وكأن أنفاسه قد قطعت بهذا السفر الطويل ..

قدمت المرأة طعاماً وشراباً للعجوز ولكنه حين رفع يديه ليأكل أول لقمة وقفت يده عند فمه ثم أعادها إلى القصعة وسكن قليلاً ثم تنهد وأخذ كأس الماء ليشرب وما إن انتهى من شربه حتى سقطت دمعات من عينيه في داخل الكوب وقال:

كانت رائعة جداً لدرجة أنني لم أستطع حب سواها بعد رحيلها

ظلت المرأة صامتة تنظر إليه ولم تجرؤ على السؤال ..

حتى تكلم الشيخ وقال :

منذ سنوات وأنا أبحث عنها ..

المرأة : تبحث عنها ؟؟ من هي ؟

العجوز : امرأة رائعة لم ولن أجد مثلها ..

لقد مررتُ بالقرى والمدن بحثت عنها في كل مكان ولكنني لم أجدها ..

المرأة : اصبر أيها الشيخ ، ستجدها بإذن الله ، ولكن ما قصتها هل ضاعت أم سافرت ؟؟

العجوز : بل تركتني ، لقد أخطأت في حقها وظلمتها وأنكرت جميل فضلها وما زالت تصبر علي حتى أصابها اليأس مني فرحلت وتركتني ، إنها زوجتي .. طلّقتها وانتظرتني زمناً لعلّس أن أعود إليها لكنني خسرتها .. ..

المرأة :يالها من قصة .. منذ متى وأنت تبحث عنها أيها الشيخ ؟

صمت الشيخ لدقيقة كاملة وأغمض عينيه ثم قال :

منذ ثلاثين سنة ..

المرأة : يا إلهي .. ولم تجدها حتى الأن ؟ ولم تملّ من البحث بعد؟

– أيمل الظالم التائب من البحث عن راحة باله عند المظلوم ؟ سأبحث عنها حتى أجدها أو أموت وأنا أبحث عنها ..

كانت زهراء تسمع حديثهما متعجبة من هذه الحياة ، لماذا نضطر إلى الظلم ولماذا ننكر فضل الآخرين ، لماذا ننسى وقوفهم إلى جانبنا في اللحظة التي كنا يائسين من كل شيء ، لماذا تحيط بنا الأنانية في لحظة الرفاهية ؟

ولم تستطع أن تتمالك نفسها حتى دخلت في دخلت في دوامة من الأسئلة القاتلة مع الرجل العجوز ابتدأته بقولها :

وهل تظن بأن ثلاثين سنة من البحث كافية لتوبتك ؟

وهل جفت منك المدامع على خطأك هذا ؟

وانهالت عليه بالأسئلة وكانت أمها تنظر إليها بعجب !! كيف لهذه الفتاة الخائفة الجبانة أن تتفوه بكل هذه العبارات وكأنها بركان ثائر ؟

وأما العجوز فاكتفى بالدموع حتى امتلأت لحيته بها ..

" إن العجز الحقيقي أن نفقد صبرنا في طريقنا للبحث عن الأمل "

بكى العجوز لفترة طويلة وغاب في ذكرياته المؤلمة ، كانت يده ترتجف وعيونه غارقة بالدموع تذكر زوجته وبدأ بالحديث عنها وأثناء حديثه هدأت زهراء وجلست أمامه مع والدتها تنظران إليه متشوقتان لسماع قصته مع زوجته ، و قد تحدث عن زوجته كثيراً والندم يأكل فؤاده ورأسه إلى الأرض من شدة خجله ..

ثم نظر إلى زهراء وقال :

يابنتي ، أرى الخوف في عينيك وهمٌ وإن حديثك إليّ هذا اليوم يظهر قوة مخبوءة في داخلك ، يا بنيتي لابد لنا من الخوف ولكن حذارِ أن تسمحي له بأن يقتلك ويدمر حياتك ، إن الخائف لا يمكن أن يعيش طويلاً بل يموت في كل يوم مراتٍ عديدة ولا يدري عنه أحد ممن حوله .. أتعلمين ، كنتُ في شبابي منفرداً وقد اعتزلتُ الناس وانشغلتُ بنفسي عنهم ونتيجة اعتزالي أرهقتني الوساوس والهموم ، كنتُ أقول لنفسي لماذا لا أعيش حياتي كما يفعل الكثير من الناس وكنتُ موقناً بأن الحياة ليست دائماً حظوظ ولكن أكثر المحظوظين فضّلوا المغامرة بكل ما لديهم ونجحوا بتحقيق أمنياتهم وأحلامهم ..

حتى التقيتُ بالفتاة التي أصبحت فيما بعد زوجتي ..

في أول لقاء لي بها كنت في الوادي وكانت تحمل سلة تقطف من ثمار الشجر وكنتُ أراها في كل يوم نظراً لاعتزالي في ذلك الوادي ..

أنظر إلى السماء وإلى الجبال ، كنتُ ألمحها في كل يوم فتاة نحيفة رشيقة متحركة ومملوءة بالنشاط ، تسعى في رزقها كأنها حمامة بيضاء جميلة .. لكني لم اقترب منها ولم أفكر بها حتى بدأتني الحديث واقتربت مني وقالت :

ألا تقوم بعمل نافع بدلاً من جلوسك طيلة الوقت إن الطيور لا تعيش بلا حركة والله يبارك بعمل الذين يتحركون ولا يكسلون ؟

ثم ابتسمت ابتسامة لم أميز إن كانت ساخرة أم مجرد ابتسامة عادية ..

وبقيت ليلتي تلك أفكر بكلمتها ولم أستطع النوم حتى طلع الفجر ونمت دون أن أشعر ولما استيقظت كان النهار قد ذهب معظمه فلم أخرج من بيتي ..

زهراء : وماذا حصل بعد ذلك ؟

العجوز :

في اليوم التالي عدتُ إلى الوادي وجلستُ كعادتي ولكني كنتُ أنتظرالفتاة هذه المرة لأسألها عن سبب كلامها ، وبالفعل جاءت الفتاة وقطفت الثمر وبعد ان انتهت توجهت إلى القرية لكنني أوقفتها قبل أن تدخل اسوار القرية وقلتُ لها :

لستُ بحاجة إلى العمل فأنا آكل من هذه الثمار ولدي بيتٌ يؤويني ولستُ بحاجة إلى الناس ..

في تلك اللحظة ضحكت الفتاة وقالت ساخرة :

بل إنه الجبنُ الذي امتلأ به قلبك ...

فالجبان وحده من لا يجد في هذه الحياة شيئاً ممتعاً لأنه ببساطة يخاف من كل شيء ولا يجرؤ على المغامرة وها أنت تقول لستُ بحاجة إلى

الناس وهذا يعني انك لست بحاجة لامرأة إلى جوارك ولا إلى اولاد والقوي من الرجال من يواجه مصاعب الحياة دون خوف من نتائجها ، ويرى في كل شيء (سنة حياة) ..

وبعد أن سمعت كلامها يا بنتي خجلتُ من نفسي وعرفتُ للمرة الأولى بأنني جبانٌ حقاً ولا أصلح لشيء ..

ثم تركتني في دوامة من الحيرة ورحلت بعيدا ..

زهراء : (بعد أن سمعت كلام العجوز) : وماذا فعلت بعد سماعك لهذه الكلمات ؟

العجوز : بل قولي لكمات كادت تقتلني ، بعد أن غادرت الفتاة وتركتني وراءها مثل أرنب مخنوق ورجعتُ إلى بيتي وكاد الحزنُ يقتلني ، وبعد مراجعتي لطريقة عيشي في الحياة وجدتُني أملك من الجبن والخوف ما يكفي لمجموعة من البشر ..

ولم أنم تلك الليلة جيداً وشعرتُ بإحساس غريب لم أشعر به من قبل ..

زهراء : هل لك أن تصف ذلك الشعور (وكانت في نفسها تريد أن تكتشف فيما لو كان هو ذات الشعور الذي ينتابها دائما)

العجوز : لقد أحسستُ بكآبة شديدة وكأنني ورقة شجر متعفنة في بطن الوادي ، للمرة الأولى التي أحسستُ بها بصغر حجمي في هذا الكون وكأني لم أفعل شيئا جيداً في هذه الحياة ، وأيقنتُ بأن الله أرسل إليّ من يُبَصّرني بهذا العيب والخطأ الذي كنتُ أعيشه ..

أتعلمين يابنتي هناك إشارات في هذا الكون فلا تظني بأن هناك شيء يأتي صدفة بل كل شيء مدبّر والسعيد منا من يتفكر بهذا الكون وإشاراته وانظري الى حياتك ولينظر كل واحد منا الى حياته كيف كان

قبل سنوات واين وصل وحتى لو وصل الى المزيد من الفشل فهو يعلم في قرار نفسه سبب الفشل ويلوم نفسه دون أن يسمعه احد ..

(وكانت زهراء تنظر الى العجوز وتقول في نفسها وقد ارسلك الله الي إشارة لتفهم الحياة وابعد الكآبة عني)

(ثم أخذ العجوز كأس الماء وخرج من البيت ورشق بالماء وجهه وغسله)

ثم جلس على الأرض خارج المنزل بالقرب من الباب وقال :

حين أتى الصباح اتخذت قراري بأن أرى الفتاة مرة أخرى وفي طريقي إلى الوادي سألتُ نفسي ولماذا أراها ، وفي الحقيقة لم أعرف سبب رغبتي برؤيتها حاولتُ أن أفهم السبب لكني لم أجد أي سبب مقنع لرؤيتها مرة أخرى ..

جلستُ في مكاني المعتاد ولكني هذه المرة استلقيت على ظهري بالقرب من النهر وكانت الغيوم البيضاء تملأ السماء ..

وكنت بين الحين والآخر أنظر إلى الغابة لعلي ارى الفتاة مرة أخرى لكنها لم تأتِ في ذلك اليوم ..

ومضت الأيام ولم أرها فأصابني القلق لكني تأكدتُ من هذه الحكمة فقبل غيابها وفي اخر لقاء لنا .. وصلتني اشارة لأفهم الحياة جيداً ..

حاولتُ خلال هذه الفترة أن أنسى ما حدث وقررتُ أن أفعل شيئاً لأهل القرية وكانت الفكرة بأن أقطف بعض الثمار وأغسلها بماء النهر جيداً ثم أحملها وأوزعها على الأطفال والعجائز الذين لا يستطيعون الوصول إلى تلك الغابة ، وكلما قطفت ثمرة تفكرت في الماء الذي سقيت به والأرض التي استمدت مؤونتها منها وكيف لهذه الشجرة أن

تجذب حشرة بزهرتها لتلقحها فتثمر رغم ضعف تلك الحشرة في الوقت الذي ليس لنا قدرة على فعل هذا ..

وكنتُ اوزع الفاكهة و نظر يمينا وشمالاً في كل أرجاء القرية لعلي أرى الفتاة من جديد لكن دون جدوى ..

زهراء : وهل اكتفيت بقطف الثمار في كل يوم ..؟

العجوز : بل كنتُ أساعد الناس في كل شيء حتى أن الأطفال في كل يوم ينتظرونني عند أول القرية فأطعمهم وألاعبهم وتغيرت حياتي وشعرتُ بأن الفراغ الذي أهدرته في السابق كالذنب الثقيل على الظهر وندمتُ أشد الندم على ضياعه وإنني يابنتي لا أقول لك عليك ان تساعدي الناس في حياتك وتكتفي ولكني أقول إن الوقت هو من يجعلك سعيدة أو تعيسة ولهذا عندما أنظر إلى الكون أتذكر الوقت ..

وصارت الأيام تتلوها الأيام والساعات تنتهي ومازلتُ أطمع بتوفيق الله أن أجد الفتاة أو أراها ولو من بعيد ..

"الألم الذي يصيبنا بعد الاشتياق أشد من الألم الحاضر لأنه يشبه قطرات الماء الضعيفة بعد مرور زمن يمكنها صنع ثقب في الصخر "

العجوز يكمل حديثه :

كنتُ أبحث عنها ولكني انتبهتُ إلى مقدار التغيير الذي حصل لي ، صدقيني يابنتي نحن لا نفقه كثيراً عن الحياة لأننا مازلنا نعيشها واقعاً ونحن نعلم أنها زائلة ، ما أجمل أن تعيشي ويديك بيضاء وما أجمل أن

تقدمي دون مقابل ، والأجمل من هذا كله أن تحمدي المنعم الذي رزقك وهنا لن تضطري للتفكير برزقك لأن الحامد لا تزول عنه النعمة ..

كنتُ أصف للناس شكل الفتاة وقد عرفها بعضهم لكنهم لا يعرفون إن كانت في هذه القرية أم في المجاورة ..

وبعد عدة شهور ذهبتُ كعادتي إلى النهر لأجلس وحدي وأتفكر وحين نظرت إلى الغابة رأيتها فانطلقتُ إليها مسرعا وقد اغرورغت عيناي حتى صارت رؤيتي مشوشة من الدموع فلما وصلتُ إليها قلتُ لها :

أين كنتِ ؟ لقد بحثت عنك طويلا .. أأنتِ بخير ؟

فابتسمت ابتسامة ساخر وقالت : تبحث عني ؟ (وهي تنظر إلى الشجر ولم تنظر إليّ حتى) ولماذا تبحث عني ؟

هنا أحسست بالصدمة وقلتُ في نفسي :

ماذا فعلتُ ؟ وهل يحق لي أن أسألها وليس بيننا قرابة أو صداقة أو أي شيء يربطنا بل إنها لا تبالي بوجودي أبداً ..

ثم قلت لها : لا أريد شيئا لكني اعتدتُ رؤيتك هنا تقطفين الثمر ولم ... (ثم لم أجد أي مبرر لكلامي فآثرت الصمت)

فأكملت الفتاة قطف الثمر وقالت : يجدر بك أن لا تقف هنا حتى لا يظن الناس بنا شراً فاذهب إلى النهر واجلس في مكانك ..

فخجلتُ من نفسي وذهبت إلى النهر وتفكرت في تلك الأيام والشهور التي مضت وأنا أفكر بها ولكني عدت إلى صوابي وخلقت لها عذرا فهي لا تدري بي وليس هناك ما يجعلها كذلك ..

وبعد ساعة انتهت الفتاة من قطف الثمار وكانت تقطف بانتقاء حيث تتلمس الثمرة فإذا رأتها ناضجة قطفتها ، فأخذت الثمار ومرّت بالقرب من النهر متجهة نحوي ولما اقتربتْ مني قالت :

لقد سمعتُ عن أفعالك بعد آخر لقاء لنا وسررتُ بذلك ..

في لحظتها شعرت بأن حياتي تغيرت وحتى قلبي أحسست بأن نبضاته اختلفت وأصبحتُ أكثر نشاطا وكأن أمامي ورقة مليئة بالطموحات التي يجب أن أحققها ، إنها نسائم الحب في بدايتها ..

ثم سألتها عن سبب غيابها فأجابت :

كنت عند جدتي المريضة في قرية بعيدة من هنا وبقيت بجانبها لكنها توفيت منذ أيام ..

ثم نظر الرجل العجوز إلى زهراء وأشار إلى الماء فلما ارتوى سألها :

لماذا لا أراك بين الفتيات على النهر؟

زهراء : لم أكن يوما معهن .. (ثم ظهرت علامات الاكتئاب في عينيها) فقال :

يبدو أنهن قد فشلن في انتشالك من فكرة الوحدة المقيتة ومازلتِ تشعرين بأن كل شيء يتساوى في الحياة وكأن هذه الأشياء ليس لها أي طعم او لون ..

مع ذلك يا ابنتي سأحكي لك حكاية :

كانت هناك سمكة صغيرة في البحر ، كانت تلعب وتسبح في كل جهة حتى ملّت من حياتها ، رأت أن كل شيء لا قيمة له في البحر ، كانت تنظر إلى ضوء الشمس وتحلم أن تخرج من هذا البحر ولكنها على دراية كاملة بأنها لا يمكن أن تعيش خارجه ، حاولت السمكات أن يخرجنها

من الكآبة لكن حبها للاعتزال حال دون ذلك فكلما اقتربت منها سمكة قالت لها : اذهبي من هنا ..

حتى بقيت وحيدة ..

ولن أقول لك يابنتي أنها حاولت الخروج من البحر كما في القصص لأنها تعلم أن هلاكها خارجه لكنها كانت تنظر إلى الأعلى وترى بعينيها كيف تنزل الشباك من القوارب وكيف تخدع الأسماك فيصطادها البشر وفي كل يوم ترى هذا المنظر وتقول في نفسها : يالحماقة هذه الأسماك ..

ومرت الأيام سألت نفسها :

مالذي يمنعني من اللحاق بهن لأنتهي من هذه الحياة فأنا لا أرى فيها شيئا جميلاً يستحق أن أعيش من أجله ؟

فمرت من أمامها سمكة كبيرة في العمر فسألتها كيف عشتي كل هذه السنوات ألا تملّين من هذه الحياة ؟

فأجابت :

لأننا نكره الموت نحاول أن نعيش أكبر قدر من الوقت ولأننا لا نعرف مصيرنا بعد ذلك نحاول أن نستمتع بكل لحظة نعيشها ..

كانت كلمات من سمكة كبيرة بالعمر يا ابنتي وأنا أقول لك ذات الكلام ونحن مؤمنون بالموت وما بعد الموت واليوم الآخر فلهذا لابد أن نرى في الحياة المعبر الموصل إلى النعيم ، اعملي وتحركي واستمتعي ولا تؤذي ولا تكرهي ولا تفعلي أشياء تندمي على فعلها وأهم هذه الاشياء أن يضيع وقتك بكآبة لا نفع فيها فأنتِ يا صغيرتي تتعاملين مع الوقت فهو يمضي بالكآبة ويمضي بالسعادة ويمضي بالانشغال ، وبما أنه سيمضي بلا نزاع فاكسبي منه بعضه او كلّه ..

زهراء : (مبتسمة لهذه الكلمات التي جعلتْ جزءا من كآبتها يتلاشى)

استحسنتُ كلامك ، بل إنه يذكرني بكلمات أبي ..

العجوز : (يكمل قصته)

وفي اليوم التالي رأيت الفتاة ولكني لم أقترب منها وحدث في صدري ما لا أستطيع وصفه بكلمات ، من اشتعال نار ورغبة في الاقتراب منها لكني دفعت نفسي بالصبر ولم أتحرك من مكاني ومضت عدة أيام وأنا أراها ولا أستطيع التحدث إليها لا أدري أهو الخجل أم الخوف ؟ وهل لاحظتي كيف تتنافر مشاعري بين حب الاقتراب وبين الخوف والخجل. . فبقيت هكذا حتى أتاني هاجس بأن أتغلب على هذا الخوف الممزوج بالخجل فتبعتها من بعيد حتى عرفتُ منزلها وكانت تسكن في بيت مع نسوة لا أدري أهن قريبات لها أم مجرد نساء جمعتهن الظروف ..

زهراء :

ولماذا كنت تهتم بها إلى هذه الدرجة ، فلا أظن أن هناك سببا مقنعاً لمواصلة البحث عنها أو حتى محاولة التحدث إليها فأنا أرى أنها فتاة غير مهتمة بك أو أن هناك شيئاً يشغلها !!

العجوز :

هذا صحيح ، وسألت نفسي هذا السؤال وقتها وكانت الاجابة بعد طول تفكير أنني اعتدتُ عليها وربما تعلّقتُ دون أن أشعر فكما تعلمين كنت أعيش لوحدي ولم يسبق أن تحدثتُ إلى أحدهم أو حتى أسمع كلمة قد منه تؤثر بي ..

لهذا كنتُ أرتبكُ حين أراها وأتحدث إليها ..

وبعد فترة حاولتُ أن أبعد عقلي عن التفكير بها لكنني اكتشفتُ حبي لها وتعلقي بها (ثم نظر الرجل العجوز إلى الأفق) آه ..

أجدها مثل الملكة بلقيس وأرى في عينيها أساطير القصص وخبايا التاريخ وفي صوتها وكلماتها عمق المودة وسعة المحبة وكيف لي أن أبتعد عن التفكير بها وهي التي سلبتني من حياتي البائسة ورمتني في فلك الخيال حتى تغيرتُ من حال إلى حال ..

صدقيني لا أرغب بشيء سوى النظر إليها ولو من بعيد هي غذائي وهوائي وسعادتي وحياتي ..

زهراء : ما أجمل هذه الأحاسيس ، ولكن ماذا فعلت لتجعل قلبها يستأنس بك ؟

العجوز :

فعلتُ الكثير ، لكن دون جدوى حتى إنني لم أترك فعلا من أفعال الرجال والمراهقين وحتى أفعال الحمقى إلا وفعلتُ لكنها فتاة غريبة ، أعجب كيف لا تبالي بكل ما أقوم به ولم أرَ منها إلا ابتسامة ساخرة

رغم معرفتي التامة بأنها لا تسخر وإنما مشكلتي هي أنني لم أعرف كيف أصل إلى قلبها ..

ومن المضحك أني كنت أسأل كبار السن في القرية لعل أحدا منهم لديه فكرة لأجعلها تنظر إلي نظرة مختلفة ..

لكن زمانهم غير زماننا لهذا لم استفد شيئا من نصائحهم بهذه القصة ..

حتى قالت لي امرأة ثلاثينية يمكنك فعل ذلك .. فقلت لها : وكيف !!!؟

فأجابت : عليك أن تجعلها تضحك ..

فقط ؟؟

يمكن لكثير من الرجال أن يضحكوا نساءهم لكن هل يستطيع أحدهم أن يجعل حبيبته تضحك من قلبها بحيث تستطيع التمييز بين ضحكتها هذه وتلك ؟ إن القليل منهم من يفعل ذلك ..

وماذا أفعل ؟ سأجرب حظي ..

زهراء :

نحن الفتيات يمكن إضحاكنا بسهولة لكن من الصعب أن يستطيع أحد فعل ذلك ليجعل ضحكنا يزيدنا تعلقا ..

فهناك فرق بين ضحكة عابرة وبين ضحكة تجعل تعلقنا خطرا قد يصل إلى درجة البكاء إن ابتعد عنا من كان يلهمنا هذا ..

العجوز :

كان لابد من تجربة هذه الفكرة وبدأت أفكر في طريقة تلفت انتباهها وإن كانت طريقة مزعجة قليلا فالأهم في الفكرة أن آخذ حيزا من عقلها ..

زهراء :

وماذا فعلت ؟

العجوز :

فعلت الكثير يابنتي ولم أستطع اضحاكها أو لفت انتباهها شعرتُ بأنها لا تحب شيئاً في الحياة ومضت الأيام وأنا افكر ثم أنفذ أفكاري على أرض الواقع فلم يتأثر فؤادها بل إنها في آخر مرة التقيتُ بها سخرتْ مني وقالت لي كلمة لم أنسها حتى هذا اليوم ..

قالت لي : أنت ساذج ..

كانت إهانة بالنسبة لي وقد حطمت هذه الكلمة كل ما سعيت لأجله خلال تلك الأيام وأصبحت أفكاري جميعها باتجاه واحد بأن لا أفكر بأي امرأة وأن أعيش حياتي بعيدا عن فكرة نساء ..

كانت خطوة خاطئة أنا أعلم إنه لا يستطيع رجل العيش دون نساء .. حتى آدم لم يفرح كان في الجنة ففرح بحواء تلك المرأة التي أزالت عنه الوحدة وملأت قلبه بالحب والسعادة ..

زهراء :

وهل كان شعورك فقط بالإهانة أم كان لموقفها معك تبعات أخرى أثرت في حياتك ؟

العجوز :

آه يا صغيرتي كنت أتألم بصمت ليس عليها بل على وقتٍ ذهب من عمري لم أبنِ فيه شخصيتي المنفردة البعيدة عن الضعف وهي قبل ذلك أخبرتني بتلك العبارة التي جعلتني أغير تفكيري والان سخرت مني فلزم مني أن أتألم حتى أبدأ حياة جديدة وأقهر الماضي لأجعله ذكرى جميلة وإن كان قبيحا مزعجا ..

إن أسوء ما يمر بنا يا صغيرتي أن نسمع كلمات تؤذي قلوبنا قد يقولها إنسان لنا دون إحساس بوقعها فلا يعير اهتماما عندما ينطقها وهي

تحمل الكثير من الإهانة ولكن هذا الأمر السيء يجعلنا أكثر قوة بعد الألم الذي أوحش قلوبنا ..

فقررتُ أن أهجر المكان وأختار قرية أخرى لكن بعد أن أغير أفكاري وأسلوبي في الحياة وقد فعلتُ هذا ..

زهراء :

كيف فعلتَ هذا ، إنه من الصعب علينا أن نغير طريقتنا في الحياة ؟

العجوز :

يصعب ذلك يا صغيرتي حينما تنظرين إلى كلام الناس وكأنه كلام مقدس ، ويصعب أيضا عندما تكونين جبانة فلا تتغلبي على مخاوفك ويصعب كذلك حين لا تجربين ذلك .

إننا نقول عن كل شيء " إنه صعب " دون تجربة ، لماذا لا نجرب ثم نقرر فيما إذا كان صعباً أم سهلا ..

زهراء :

وماذا فعلت بالضبط ؟ وكيف نجحت في تغيير أسلوبك ؟

العجوز :

أولا قمتُ بمراجعة حياتي كاملة ونظرتُ إلى أسوء المواقف التي حدثت لي ثم بعد ذلك قمت بكتابتها ورتبتها حسب قوة الألم الذي ورّثته في فؤادي وكتبت أيضا السبب الذي منعني من التغيير وهو (الوحشة والخوف) ولأتغلب على الخوف والوحشة ذهبت إلى ذلك المكان ..

زهراء : أي مكان تقصد ؟

العجوز :

إنها غابة تدعى الغابة الصفراء ..

– وماذا بوجد هناك ؟

– قرأت في أوراق كتبها أبي من قبل عن رحلاته وذكر من ضمن تلك الرحلات دخوله إلى الغابة الصفراء وماذكره عن حوادث غريبة حصلت معه في هذه الغابة أثار فضولي وخوفي أيضا فقررتُ أن أذهب في رحلة إلى ذلك المكان والذي لم يقربه شخص لما يسمعونه من قصص وحكايات عن تلك الغابة ..

– ولماذا سميت بهذا الاسم ؟

– كما وصفها أبي أرض تربتها ذات لونٍ أصفرٍ ولكنها كسبت شهرتها من القصص الغامضة التي حدثت فيها ، وقد كنتُ يا صغيرتي أرتجف خوفا من دخولها لكن لا سبيل للتغلب على مخاوفي سوى دخولي في مغامرة تعطيني قوة وأهذّب بها نفسي .. وحملتُ امتعتي وذهبت إلى هذه الغابة ، كنتُ أسأل الناس عنها حتى وصلتُ هضبة فلما وقفت

فوقها رأيت الغابة من بعيد وكانت أشبه ببقعة صفراء اللون من بعيد وما زلتُ أقترب منها حتى وصلتُ إليها ..

يتابع العجوز حديثه . ..

كنتُ أتخيل أشياء كثيرة قد تحدث لي ولا أدري ما سيحدث في الواقع لأن أبي لم يذكر في مذكراته تلك الأشياء الغامضة ، ولعلي ترددت في الدخول إليها بعد أن وصلت إلى مقدمة الغابة فلا سبيل إلى إنكار الخوف ، لكن تلك المخاوف كانت ستقهر بدخولي وتجربتي ومغامرتي فدخلت وأنا لا أعلم ما سيحدث ، تأملتُ الأشجار والتربة والأزهار كان كل شيء طبيعيا إلا إنني شعرتُ بحركة الأغصان غير العادية بعد دخولي إلى عمق الغابة وكان ذلك أول النهار وصرتُ أتفقد الغابة لعلي أجد شيئا غريباً فلم أجد وسمعتُ أصواتا كأنها تأتي من مكان بعيد وليس له جهة معينة كانت أصواتا غير واضحة لكنني على يقين أني لم أسمعها

من قبل وصرت أسرع بالسير ومن شدة خوفي ظننت صوت قدمي وهي تضرب الأرض صوتاً لأحدٍ يتبعني حتى وصلت إلى مجموعة من الصخور بالقرب من ساقية فجلست هناك وتأملت المكان مرة أخرى حتى أحسست بالاطمئنان قليلاً وأخرجت طعامي لأفطر وكان الماء في الساقية نقيا جدا وماهي إلا دقائق حتى أحسست بالدوار والغثيان ولم يحدث لي هذا من قبل ثم أصابتني حكة شديدة في جسدي وكأن هناك ثمة شيء فيه ، فنظرت إلى صدري ويدي وفوجئت بإصابتي بطفح جلدي فارتجفتُ وخفتُ كثيراً فحملتُ امتعتي وركضت كالمجنون إلى الجهة الاخرى من الغابة ، وأثناء ذلك كنتُ ألتفت يمينا وشمالا وأسمع صوت امرأة تضحك لكني لم أرها ..

وكانت الغابة كثيفة جدا لدرجة تحجب فيها ضوء الشمس وكأنه الليل (وذلك حين دخلت إلى أعماقها) ، حتى وصلتُ إلى مساحة فارغة لا يوجد فيها أي شجرة فوقفتُ في وسطها ونظرت إلى السماء فلم أجد الشمس ، بل كانت في الأفق وأوشكت على المغيب ، ويا عجباً كيف يمضي الوقت بسرعة وكأني لم أقض إلا ساعة واحدة في هذه الغابة ،..

زهراء :

وماذا فعلت مع هذه الأحداث الغريبة ، ألم تشعر بالرعب ؟

العجوز :

أي رعب !! لقد كنت أهرب من ذاتي حتى خفتُ من صوت أنفاسي، ورأيت ظلالاً غريبة بين الأشجار وكأن الضباب يحبس في داخله أعمدة سوداء..

و أحيانا أرى أضواءً غريبة بين الأشجار أيضا ولا أعلم إن كانت نوعاً من الحشرات المضيئة أم شيئاً آخر ..

وظل الدمُ مستنفراً في عروقي ولم يهدأ قلبي عن النبض بسرعة مخيفة ..

زهراء : هل حدثت أشياء أخرى ؟

فكشف العجوز عن ساعده ، نظرت زهراء إلى آثار جروح على ساعده ويبدو أنها كانت عميقة فأثرها واضح للعيان ..

ثم قال لها :

ليس هنا فحسب بل في جميع أنحاء جسدي ، حدث ذلك كله في الغابة فقد هبت ريح قوية محملة بالغبار وأرواق الشجر فأغمضت عيني حتى لا يدخل غبار ثم اصطدم بي جسم غريب فسقطت على الأرض مغما

عليّ فلم أستيقظ حتى طلوع الشمس في النهار التالي وكانت الجروح تملأ جسدي ولا أعرف مصدرها وسببها ..

فحاولتُ النهوض وكنتُ أتألم بشدة وكأن عظام قدمي مكسورة لكني وقفتُ بعد معاناة ومشيت حتى رأيتُ بيتاً من الخشب والحشائش تملأ جدرانه فعرفتُ بأنه مهجور فتقدمتُ نحوه حتى وصلتُ إليه ...

كانت خطواتي بطيئة جداً وأحسستُ بثقل في قدمي وأنا اتقدم رويدا رويدا وأرتجف من الخوف فلا أدري ما أجد في ذلك البيت مترددا في الدخول لكن الخوف مما ورائي أشد من ذلك البيت لأني أيقنتُ بوجود شيء غريب في الغابة وإلا ما حدث معي من جروح وكدمات وأصوات النساء ليس بالأمر العادي أبداً ..

وحين وصلت الى الباب طرقته وناديت : هل من أحد هنا ؟

فلم أسمع أي إجابة رغم محاولتي مرارا ..

ونظرت من النافذة وكانت مغبرة جدا من الداخل والخارج فلم أرَ شيئا فقررت الدخول والمغامرة ..

ففتحت الباب بهدوء وكان صوته من الصدأ مخيفاً ثم دخلت وأخذتُ نظرة سريعة وخاطفة في جميع الأنحاء فلم أجد أحدا فيه وكان الغبار يملأ المكان ..

نافذة مغلقة بقطعة من القماش وكأس مصنوعة من الطين وسرير خشبي فوقه فراش من الصوف ووسادة وفي البيت مساحة فارغة في وسطها طاولة وفوقها صندوق خشبي مفتوح وبالقرب منه شمعة قد ذابت في إناء معدني صغير ....

اقتربت بحذر شديد ونظرت إلى الصندوق فإذا بداخله صحائف صفراء وقد كتب عليها : هذا ما حدث قبل أن أموت ..

فأصابني الفضول لقراءة ما دوّن في هذه الصحائف ..

فجلست على كرسي بالقرب من الطاولة وكان مكسورا قليلا حيث يصدر صوتا وكأنه يوشك أن يتحطم لكنه ظل صامدا فلم أكن ثقيلا لتلك الدرجة ..

وقبل أن أبدأ بالقراءة نظرت يميناً وشمالا وإلى زوايا البيت خوفا وقلقا من حدوث أشياء غريبة ..

وحين اطمأن قلبي قليلا فتحت الصحائف وقرأت ما فيها ..

كانت عبارة عن كلمات كتبها رجل يائس من حياته وكأن الموت يقف فوق رأسه وأعطاه فرصة للكتابة قبل أن تنتزع روحه من مسامات بدنه ..

كتب هذا اليائس :

لا شيء أسوء من الموت غريبا وبعيدا ..

والأسوء أن تنتظرك زوجتك التي حاولت اقناعك بأن لا تسافر وأنت تعلم بمرضها الذي قد يقتلها في أية لحظة ..

وماذا عن طفلتك الصغيرة هل يمكن أن تعيش إذا فقدت والديها ؟

وكتب أيضاً :

وأشد من ألم فراق الحياة أن تتذكر في آخر لحظات حياتك من تحبه وهو بعيد ..

كانت هذه الورقة الأولى

زهراء :

وماذا كتاب في باقي الأوراق ؟

العجوز :

كانت مجرد ذكريات جميلة حدثت معه ويذكر فيها قصة زواجه وحبه وتحدث عن ابنته ..

لكن الذي لفت انتباهي آخر عبارة كتبها :

(يابنتي كوني قوية)

ومن خلال قرائتي لهذه الأوراق عرفت بعض العلامات التي قد ترشدني إلى قريته فذكرياته مرتبطة بمعالم القرية ..

فأخذت الصحائف وقمت بالبحث عن أي أثر حول المنزل يدل إليه ، مثل جثته أو عظامه ..

لكني لم أجد سوى قبعة بالية تدل على مرور سنين من الحياة حتى اهترأت ..

وبما أنه كان أول النهار قررت أن لا أبقى في الغابة وأكمل السير للبحث عن الفتاة ..

يتابع العجوز قصته ..

ربما كانت مهمتي الحقيقية أن أجد تلك الفتاة فليس ثمة شيء يأتي صدفة ..

فأمسكت بالقبعة البالية ووضعتها بين أمتعتي وأخذت أنظر في جميع الاتجاهات حتى أجد المخرج من هذه الغابة ..

فشددت من عزمي وتابعت سيري في إحدى الاتجاهات التي شعرت بأنها ستكون وجهتي الصحيحة فأنا مع كل هذا أيقنت بأن طريقي إلى تلك الفتاة سيكون قدرا ..

ولعلمي أن هذا الرجل الذي مات في هذا المكان لابد بأن له قصة وإلا كيف يترك زوجته المريض وابنته الصغيرة فلهذا سر غامض عليي اكتشافه وكنتُ أيضا أفكر بتلك الفتاة التي ربما أصبحت شابة فوالدها مات منذ سنوات وهذه القبعة وتلك المذكرات تدل على سنين مرّت ..

زهراء :

وكيف خرجت من هذه الغابة وهي كما تقول أشبه بالمتاهة ؟

العجوز :

حين دخلت إلى الغابة كانت تربة الأرض متدرجة الألوان فكلما اقتربت إلى عمق الغابة ازداد اللون الأصفر وحين قررت الخروج منها تابعت التدرج العكسي للون الأصفر فكلما خفت اللون أوقن بأن الخروج بات قريبا فالغابة كبيرة جدا وحين تنظرين في أفقها لا ترين إلا الأشجار ، لكني في النهاية خرجت منها وكان أول شيء أفعله بعد خروجي أنني تنفست بقوة وكأني خرجت من بحر كدت ان أغرق في أعماقه ..

واكتشفت أن الغابة بين هضبتين كبيرتين ورأيت الهضبة الثانية أمامي وفي الحقيقة سررت بهذه الهضبة وكأني أتخيل من ورائها حياة جديدة ..

أما عن جروحي فلقد آلمتني كثيرا حين سعيت للخروج فلم أحسب ذلك حين خرجت من منزلي فلم أجلب معي دواء لأسعف نفسي حتى أخذ بعضها ينزف قليلا وتحاملت على نفسي واجتهدت في الصعود وكان الضغط شديدا في دمي مما جعله يزازد تدفقا فلما وصلت إلى أعلاها (أي الهضبة)أصابني الدوار وسقطت مغمى علي .

ولم أستيقظ إلا في كوخ غريب يشبه الكوخ الذي رأيته في الغابة إلا إن هذا نظيف جدا ورائحة الخشب الندية فيه ..

حاولت أن اتذكر آخر ما حدث لي لكن خسارتي للدم جعلتني لا أتذكر شيئا في وقتها ..

وانتظرت في سريري ساعة من الوقت لعلي أرى من أنقذني ولفافات بيضاء في جميع أنحاء جسدي وكلما حاولت النهوض أصابني الدوار فأعود برأسي إلى الوسادة فأرتاح ..

وبينما كنت أفكر وأخذني الخيال بعيدا سمعت صوت الباب يفتح ، حاولت النهوض فلم أستطع رفعت رأسي لأرى فلم يكن ثمة أحد هناك ..

ناديت بصوت ضعيف : هل هناك أحد ؟

فلم أسمع أي جواب فقلت في نفسي : لعله الهواء ..

وبعد قليل أظلم الكوخ وكأن الشمس قد غربت ، ثم قلت في نفسي وكيف تغرب وقت الظهيرة فمددتيدي إلى النافذة وكانت مغلقة بستارة سوداء ، حاولت أن أصل إليها لاسحبها لكن لم أستطع

ونظرت الى الباب فإذا به مغلق وهو منذ قليل كان مفتوحا والهواء يدخل منه فارتعشت من الخوف لأني لم أسمع صوت إغلاقه ، فاستسلمت لما سيحدث ولم أستغرب من ذلك لأني رأيت ما هو أشد

هولا في الغابة واستيلمت أيبضا لأني لا أستطيع النهوض والخوف يأكل قلبي فطمأنت نفسي وقلت :

لو كان هناك ما يقلق لما كنت في سريري هذا ، ربما كنت أتوهم ..

أغمضت عيني وصرت أسمع صوت أنفاسي كالريح القوية في أذني وازداد الصداع ففتحت عيني وما زال الصداع يزداد قوة حتى تلاشت الرؤية لدي وكأن ضبابا كثيفا في الكوخ فأرى الأشياء كأنها سراب يتموج أو بخار تنور يتراقص فرأيت شخصا يتقدم ويقترب ولكني لا أراه بوضوح حتى سمعت صوتا يقول : مرحبا بك ..

كان صوتا ناعما لفتاة ..

حاولت اغلاق عيني ثم فتحها لأرى جيدا فلم تذهب تلك الغشاوة وبقي الضباب أو السراب يعم الكوخ ..

فمن تلك الفتاة وما قصة الكوخ ؟

.كان صوتا ناعما لفتاة ..

حاولتُ اغلاق عيني ثم فتحها لأرى جيدا فلم تذهب تلك الغشاوة وبقي الضباب أو السراب يعم الكوخ ..

يتابع العجوز قصته :

كانت تقترب مني وكأنها تطير فوق الأرض فمن عادة الماشي أن يتحرك جسده لكن جسدها يقترب مني دون أن يتحرك ثم وضعت يديها على وجهي وكانت باردة جدا كأنها قطعة ثلج ثم مسحت وجهي ورجعت إلى الوراء فزالت الغشاوة وذهب الضباب فلم أر في حياتي فتاة أجمل منها لقد نسيت ما أنا فيه من الألم وأنا أنظر إليها وأنتظر كلمة منها لعلي اكتشف ما أنا فيه من واقع أو حلم ..

ليس في وجهها أي أثر يظهر البشاعة بل كانت كانها مرآة مصقولة وكأن الماء يجري في وجهها بعنق رفيع وعيون متسعة كأنها المحيط إلا أنها سود لا تحمل الشوائب ..

زهراء : وهل تحدثت إليك أو أخبرتك عن حقيقتها ؟

العجوز : بقيت تنظر إلي زمنا من الوقت وكأنها تمثال يقف أمامي وبعد ذلك قالت لي : لماذا أتيت إلى هنا ؟

فحكيت لها قصتي كاملة فلما انتهيت ظلت صامتة وأرادت الخروج من الكوخ فناديتها : وهل يمكنك إخباري عن نفسك ؟

نظرت إلي بعيون تحمل السكينة وقالت : لا تخرج من هنا حتى أعود ..

كان صوتها من نسل الهدوء ونظراتها مولود السكينة

فخرجت مرتدية فستانا أبيضا طويلا بل كان ثوبا ناصع البياض متناسقا يشبه الغيمة البيضاء وهي تسبح في سماء الأرض وأما هي فكأن جسدها من زجاج ..

انتظرتها ساعات حتى انتصف الليل وشعرت بالتحسن فقمت من سريري وتمشيت بالقرب من الكوخ وكان البدر مكتملا والضياء يملأ المكان ..

فرأيت نورا وبياضا من بعيد من خلف الهضبة فلما اقترب ذلك الشيء عرفت بأنها تلك الفتاة ذاتها فأسرعت الى الكوخ وجلست على السرير حتى دخلت وبيدها ثمرة غريبة الشكل

أعطتني إياها وقالت لي : إذا أكلت هذه الثمرة ستشعر بالتحسن إنها تدعى ثمرة الروح

اخذت الثمرة وكانت تشبه ثمرة التفاح لكن رائحتها مختلفة فأكلت منها قليلا فشعرت ببرودتها في جميع أنحاء جسدي وكانت لذيذة الطعم مطيبة للمزاج ..

فلما انتهيت منها قالت لي الفتاة : ألا تشعر بالخوف وأنت معي الان ؟

فرفعت حاجب عيني اليمنى وحركت رأسي ثم قلت : مررت في الغابة الصفراء واستنفدت جميع مالدي من الخوف فيها ، لم يبق لدي مخاوف أخرى ..

ولكني أتوق إلى معرفتك ولماذا أنت هنا وهل أنت من البشر أم من الجن ؟

فنظرت إليه نظرة استغراب وقالت : وهل أبدو لك من الجن ؟ يبدو أنك تهذي وتتخيل أشياء غريبة مما ألم بك في تلك الغابة ، أنا أعيش هنا

بمفردي منذ زمن ورأيتك ملقى فوق تلك الهضبة فجئت بك إلى هنا وعالجتك ، لكن كيف حدثت تلك الجروح ؟

فلما أخبرتها بقصة الجروح ضحكت وقالت لي : ربما يلاعبونك فقط ..

قلت لها : ومن هؤلاء وهل هكذا يكون اللعب ؟ أن نؤذي الناس ثم نقول هذا مزاح ولعب ؟

اقتربت مني وقالت : عالمهم يختلف عن عالمكم ..

اهدأ وقل لي هل ستبقى هنا أم سترحل غدا في الصباح ؟

– سأرحل غدا ولكني أريد أن أسألك عن قرية (وذكرت لها صفاتها) فتغير لون وجهها ووضعت يديها على رأسها وقالت هل قرأت الأوراق في ذلك الكوخ ؟

فقلت لها لم أقرأها فحسب بل جلبتها معي ثم أخرجت الصحائف من بين أمتعتي فلما رأتها نزلت دموع من عينيها وبكت بكاءً شديدا ..

" فقلت لها لم أقرأها فحسب بل جلبتها معي ثم أخرجت الصحائف من بين أمتعتي فلما رأتها نزلت دموع من عينيها وبكت بكاءً شديدا .. "

مصنع الدموع في وسط القلب ..

سقطت الأوراق من يدي حين رأيتها تبكي ، ما أجمل تلك العيون حتى في لحظة البكاء ، كأنها ينبوع صافٍ تسيل مياهه فوق نقاء الخدود ..

اقتربتُ منها وقلت لها لماذا تبكين كالأطفال هل ثمة خطب ما ؟

وهل هناك صلة لك بهذه الصحائف ؟

قالت لي :

لا شيء ، انسى الأمر ..

لكني أحسستُ بأن هناك شيء مريب في هذه الافعال ، كأنها تعرف قصة الأوراق أو ..

زهراء : أو ماذا ؟

العجوز : أحسست في وقتها بأنها ابنة ذلك الرجل الذي كتب تلك الأوراق ...

وقبل أن تسأليني! كان إحساسي صحيحاً فبعد عناد طويل اعترفت بذلك فقلت لها اجلسي هنا أمامي فجلستْ هي على كرسي خشبي أما أنا فجلست على الأرض امامها وابتسمت لها وقلت : احكي قصة والدك ولماذا تركك مع والدتك وخرج إلى الغابة ؟

الفتاة : بصراحة ، لا أعرف السبب حتى الآن وكنت صغيرة حين توفيت والدتي ..

لكني تعجبت من شيء فسألتها عنه وقلت : ولماذا لم يأتِ إليكما والبيت قريب من هنا فلا يوجد بينكما سوى هذه الهضبة ؟

الفتاة : لم نكن هنا فبيتنا احترق وقريتنا سلبت من قطاع الطرق وهربنا جميعا في كل اتجاه ونظرا للأساطير المنتشرة حول هذه الغابة فإنه لم يجرؤ أحد على القدوم في هذا الاتجاه خوفا من المخلوقات الغريبة التي تداولوا قصصها حول هذه الغابة ..

واتجهت لوحدي إليها لأن أحد كبار السن في القرية أخبرني عن والدي بأنه اتجه إلى الغابة الصفراء ..

زهراء :وهل أخبرتك بقصتها وكيف وصلت إلى هذا الكوخ ؟

العجوز :

يبدو أنكِ تشبهينني ، كنتُ في تلك اللحظة متحمساً لمعرفة ذلك فسألتها ..

صمتت قليلا ثم أجابت :

بعد وفاة والدتي عشتُ مع امراة تسكن لوحدها في وسط القرية ، كانت امرأة قوية تعلمت الكثير منها ، عشت في بيتها وكبرتُوكنت سعيدة جدا رغم فقدي لوالديّ ولكنها مرضت مرضا شديدا قبل دخول قطاع الطرق إلى القرية فتركتُ البيت وهربت في هذا الاتجاه وكلي أمل أن أجد والدي وحين وصلت إلى هذا الكوخ عرفتُ بأن صاحبه تركه ورحل ، فبقيت فيه زمنا وكنتُ في النهار أدخل إلى الغابة وأجلس في الكوخ بعد أن اكتشفت هذه الصحف وعرفت أنها لوالدي فما ذكره في هذه الصحف هي حكايتنا ..

زهراء : ولماذا لم تبقَ في ذلك الكوخ الموجود في الغابة فليس هناك فرق بينهما ؟

العجوز : لم أسألها ولكني على يقين بأن الذكرى أجمل حين نبتعد عنها بين الحين والآخر حتى لا تفقد لذتها وروعتها فهي لم ترَ والدها لكنها رأت خطه وكتابته وقرأت الذكريات التي كتبها ..

وسأكمل لك ما حدث ليلتها :

بعد أن انتهت الفتاة من قصتها قالت لي :

هل ستبقى هنا أم سترحل ؟

فقلت لها :

إنما دخولي إلى الغابة لاستكشفها وأقتل الخوف في داخلي وكنت أريد الرجوع إلى بيتي بعد ذلك لكني لم آتِ إلى هنا إلا من أجل البحث عنكِ .

ففتحت عينيها وقالت : تبحث عني ؟ ومالذي تريده مني ؟

قلتُ : لا أريد منكِ شيئا لكنكِ ستذهبين معي إلى قريتي ، وستحبين تلك القرية كثيراً ولن أتخلى عنك ما حييت ، يكفي أنك أنقذتِ حياتي لكنها رفضت ذلك وقالت لن أذهب معك ، فابتسمتُ بل ضحكتُ فتعجبت من ذلك وخافت فقلت لها لا تخافي ، ألم تقرأي وصية والدك ؟

قال لك : (يابنتي كوني قوية)

والقوة لا تعني العزوف عن الحياة والزهد فيها ، عليك أن تذهبي معي إلى القرية وستجدين هناك حياة جميلة ..

كانت زهراء تنصت إلى العجوز وتتخيل القصة أمامها بينما قامت والدتها لعمل الغداء ..

زهراء :

لم تخبرني باسم هذه الفتاة ألم تسألها ؟

العجوز :

سألتها عن اسمها قبل أن نذهب إلى قريتي وأخبرتني أن اسمها (ريمان)

زهراء :

أكمل القصة من فضلك ، تشوقت كثيراً لمعرفة ما حدث بعد ذلك في قريتكم ..

" في هذه اللحظة أخرج العجوز زجاجة صغيرة من جيبه ، كانت مغلقة وفيها سائل أزرق أو قريب من لون البنفسج ، نظر إليها بإمعان ثم أعادها إلى جيبه "

وقال :

هذا زيت زهرة الأجراس الزرقاء صنعته ريمان ، أتعلمين كم زهرة عُصرت لتصنع هذا الزيت ؟

ألف زهرة جمعتها وصنعت منها هذا الزيت وأغلقته بإحكام وأهدتني إياه ..

زهراء :

وهل احتفظت بها طيلة هذه السنوات ؟

العجوز : هذا الزهرة قديما كانت – وما زالت – ترمز إلى العزلة ، في الوقت الذي أهدتني إياه ريمان لم أكن معتزلا لكنه الإحساس الذكي ، نعم ، هذا إحساس ريمان ، العزلة التي امتلأ بها فؤادها منذ أن كانت صغيرة ..

زهراء :

ماذا تعني بالعزلة والاحساس الذكي ؟

العجوز :

لا أقول لك إنها الحاسة السادسة لكن البعض منا يكتسب مهارة غريبة في فهم الناس وكأنه ينظر إلى مستقبلهم ، لنقل إنها الفراسة ، هذه الفراسة لا يمتلكها إلا قلب نقي والعزلة أعني بها التفكير الطويل ، إن

الذين يعجزون عن ترك وقتٍ كافٍ للعقل أن يتفكر ويستنتج ويدقق ويحسب ليس لديهم مقدرة لفهم الحياة القادمة ، ألا ترين أن الناس مقسومة ، فبعضهم يصنع المشكلات في الحياة فيكون سببا في زحامها وضيقها وبعضهم يكون ضحية هذه الأفعال فيخسر والصنف الثالث هم الذين يجدون حلولا لكل مشكلة فلا يضرهم الزحام ولا خسارة الصنف الثاني وهؤلاء هم الذين وجدوا في الفكر نصيحة لحياتهم ..

سأكمل لك ما حدث بعد ذلك :

بعد أن وصلنا إلى القرية استقبلني الناس وكأني رجل مفقود ، كانت معاملتي لهم في الآونة الأخيرة جيدة فلم ينسَ أحد تلك الأعمال التي سعيت بها من أجلهم وحين رأوها (أعني ريمان) كانوا ينظرون إليها وكأنها جوهرة نفيسة ٌ حتى إن امرأة كبيرة تعرفني اقتربت منها ونظرت إليها بإمعان ثم ضحكت وقالت لي :

لطالما قلتُ لك إنك محظوظ ، لقد حظيتَ بفتاة رائعة لتكمل حياتك معها ..

فاحمرّ خدها خجلا لأنها لم تفكر بهذه الطريقة ولا حتى أنا ، لكنني ابتسمتُ وقلت لها :

يا جدتي أريدها أن تبقى في بيتك ريثما أجهّز بعض الأمور لهذه الأميرة الرائعة ..

لم تكن ريمان من النساء اللاتي يتكلمن بلا حياء ويثرثرن في كل مكان ولا يحسبن حساباً لكلمة أنثى أو الصفة التي لابد من وجودها في كل أنثى وهو (الخجل) ، كانت صامتة خجولة والكلمة لا تخرج من فمها إلا باتزان ، فقالت المرأة العجوز : أهلا ومرحبا بكِ في بيتي المتواضع ، أسكن لوحدي وأنتِ مؤنستي يا ابنتي ..

في هذه اللحظة همستُ في أذن المرأة وقلت لها : جدتي إنها فتاة يتيمة وليس لها أحد في هذه الحياة فاعتني بها جيدا ..

في هذه الأثناء كانت الفتاة التي قابلتها عند النهر والتي كانت تقطف الثمر موجودة بالقرب من هذا الجمع وتنظر إلى ريمان نظرات غريبة فقلت في نفسي :

كنتِ سببا في خروجي إلى الغابة الصفراء وتغيير حياتي ورؤيتي لريمان ، لابد أن أشكركِ وكم من ألم يسببه لنا إنسان فيجعلنا أكثر قوة ونجاحا تقدمتُ من الفتاة وقلت لها :

مرحبا .. لم تخبريني باسمك ولكن لك فضلا كبيرا عليّ ، كنتِ السبب في تغيير حياتي (وخفضت رأسي امتنانا لها) ثم قلت لها وداعا ..

لا أدري ما هو الشعور الغريب الذي رأيته في عينيها لكني كنت أخشى أن تكون عقبة في حياتي القادمة ..

مضى ذلك اليوم والليلة بهدوء وسلام ، وكانت ريمان سعيدة مع الجدة والفتيات وحين ذهبت في تلك الليلة لرؤيتها والاطمئنان عليها قالت لي : لا وجود للسعادة مع العزلة وقالت أيضا : العزلة لها وقت ومكان وإن زادت عن القدر المطلوب ورّثت الأحزان ..

وفي صباح اليوم التالي يابنتي ذهبت إلى النهر ، إلى مكاني المعتاد فالشوق إلى ذلك المكان جعلني أفكر فيه طيلة الليل ولم أنم إلا قليلا ..

أخذت صنارة الصيد وبعض الطعام والماء وسلة وأخذتُ أصيد السمك وكنت محظوظا جدا بالصيد وكأن الأسماك اشتاقت إليّ فتدافعت للوصول إلى خيط صنارتي ..

كنتُ فرحاً جدا بذلك حتى رأيت ظل شخص يقف خلفي ، كانت تلك الفتاة تحمل سلة الثمار وتنظر إلي نظرات غريبة ..

قلت لها : مرحبا بك ، تفضلي بالجلوس ..

كنت أحاول أن أجد فرصة لمعرفة ما الذي تخفيه في عينيها ..

فجلست وهي تنظر إلى النهر وتكلمت بصوت منخفض جدا وقالت : احذر من هذه الفتاة التي جلبتها معك ..

فضحكتُ من كلامها وقلتُ لها : ولم الحذر ؟ إذا كان لديك شيء لتقولينه فأخبريني به دون مراوغة فأنا لا أحب الألغاز كثيراً فمنذ صغري وأنا أنتظر النتيجة النهائية للأشياء دون التفكير بالتفاصيل ..

قالت : لا أعتقد بأنك ستفهم ما أريد قوله ..

ثم انصرفت ولم أرَ في وجهها آثار غضب فقد كانت هادئة جدا ..

وبقيت لوحدي عند النهر أفكر بكلامها وأبتسم ..

أيعقل أن تكون الغيرة ؟

زهراء :

ولماذا ظننت بأنها الغيرة ؟

العجوز :

يابنتي هناك غيرة قبل الاعتراف بالحب وبعده فأما التي قبل الاعتراف بالمحبة فهي كاللغز يحاول المحب أن يبعد عن محبوبه سائر الناس ممن يخشى أن يأخذوه منه فيحاول البحث عن طريقة يقنع بها محبوبه وليس له علاقة بمن حوله وللأسف ، قد يصل بفكره إلى أفعال تبعد عن الأخلاق والأدب أحيانا أو يرمز كلماته كما فعلت هذه الفتاة وأما الغيرة بعد الاعتراف فهي معروفة لسائر الناس كغيرة الزوجة على زوجها أو العكس ..

زهراء :

وهل ابتسمت من قولها لهذا السبب ؟

العجوز :

ابتسمتُ لأنها ربما اعتقدت أني أحب ريمان وأنوي الزواج بها ..

فأنا لم أفكر بها كزوجة وإنما هي وصية والدها ، قال في تلك الصحف : عليك أن تكوني قوية ، والقوة لا تكون في العزلة الطويلة التي ليس لها نهاية ، إنما هي في المواجهة ، ومعايشة أحداث الزمان ، مهما كنا نمر بأوقات عصيبة تصل إلى الجوع والعطش والوحدة علينا أن نواجه الحياة بقوة ..

وشعرتُ بأني لم آتي إلى هذه الغابة وأقطعها عبثاً ، ربما كان قدر الفتاة أن ألتقي بها وآتي بها إلى قريتي لتكمل مسيرة حياتها هنا ..

كانت زهراء تستمع إلى حديث العجوز وكأنه يعنيها بكل كلمة ، حتى وصلت إلى فكرة أنها تمر بذات الأحداث التي يمر بها الرجل العجوز في شبابه ..

أكمل العجوز قصته :

ومرّت الأيام بين السعادة والشقاء وأنا أنظر إلى الناس كيف يتفاوتون في أخلاقهم وأفعالهم وكنتُ ألتقي بهذه الفتاة في مصادفات كثيرة ، لا أدري إن كانت مصادفات لأني قلت لك سابقا لا أؤمن بفكرة الصدفة ، إنما هي الأقدار ..

ومررتُ في يوم من الايام لأرى ريمان فلقيتها تبحث عن بعض الأعشاب في السوق فسألتها ماذا تفعلين بالأعشاب ؟

فقالت لي : أداوي بها الجدة ..

فكرت قليلا بالأحداث السابقة وفهمت شيئا من ذلك فقلت لها :

أظن بأن لديك معرفة بطب الأعشاب ؟

فضحكت ريمان وأخبرتني بأنها تعلمت ذلك في قريتها منذ صغرها وهي تعرف الكثير عن الأعشاب بل تخلطها وتصنع منها العقاقير والكمادات والزيوت وغيرها ..

بل إن لديها موهبة عجيبة في هذا ..

قلت لها : إن هذا شيء جميل وفي عمرك هذا قلّما نجد فتاة تجيد طب الأعشاب ..

فنظرت إلي وقالت لي كلمة لم أنسها :

" مادمت في هذه الحياة فتعلّم ما تستطيعه فأي شيء قد تحتاجه في حياتك يوما من الأيام .. "

كانت كلمات جميلة فبدلا من إضاعة الوقت باللهو بمكننا أن نلهو بتعلّم شيء جديد ..

تذكرتُ وقتها والدي وقد كان يحب كتابة أحداث يومه في كل مساء ، وحدث في يوم أن أصيبت يده اليمنى فضمدها له الطبيب وهي اليد التي يكتب بها(فقلت في نفسي وقتئذ هذا مؤسف جدا كيف سيكتب أحداث يومه) فلما نظرت إليه لم أجد في عيونه حزناً بل ابتسم ليلتها وهو ينظر إلى يده المصابة وقال : لابأس ، ارتاحي قليلاً ثم أمسك القلم بيده اليسرى وكتب ..

فاقتربتُ منه ونظرت إلى خطه فلم أميز بين خطه السابق وهذا .. فنظر إلي وقال : تعلمتُ الكتابة بكلتا يدي ..

حكيت لريمان هذه القصة وقلت لها : سأكتشف فيكِ الكثير من المواهب لاحقاً ..

فضحكت كعادتها بهدوء وكأنها طفلة تعلّمت الضحك منذ قليل ..

زهراء :

قد جهز الغداء ،، إن إمي تنادينا .. هيا بنا ..

أم زهراء تنظر إلى ابنتها وتفكر :

(أرى في عينيك لغة أخرى بعد سماعك لقصة العجوز ، أين الخوف والعزلة والملل والسآمة ، أراك تغيّرتي يابنتي ..)

كانت سعيدة جداً بلهفة ابنتها لمعرفة قصة العجوز التي وجدت فيها بعضاً مما تخفيه هذه الفتاة الخائفة ..

يكمل العجوز حديثه بعد وجبة الغداء ..

(وهو ينظر إلى زهراء وفي عينيه ندم لا يستطيع إخفاءه)

هناك الكثير من الأحداث يابنتي لا أستطيع ذكرها جميعا فهي حياة كاملة وإن تحدثت عن تفاصيل قصتي لربما أمضيت سنوات هنا أتحدث فلا أنتهي ..

ولكن الشيء الذي أريد قوله لك هو الأهم ..

في كل يوم أرى الفتاة تنظر إليّ نظرات غريبة وخاصة عندما أقف مع ريمان وأتحدث إليها ، لا أدري ما طبيعتنا نحن الرجال ، في بعض الأحيان نحب أن نغيض الأنثى فقط لنستمتع بغيرتها وربما رغبتنا أيضا بأن نرى شجار النساء فيثبتن بذلك أهميتنا لديهن ، يالها من حياة ..

لو تعلمنا كيف نستغني لما تعذب أحد بفراق من ابتعد عنه دون عذر ..

زهراء :

إنك تقسو على نفسك فماذا حدث لتقول هذه الكلمات ؟

العجوز :

بعد أيام من رؤيتي للفتاة ونظراتها المليئة بالغيرة وقد أحست بأني استغنيت عنها بعدما لحقتها كثيراً لمعرفة اسمها فقط لكنها رفضت وسخرت مني ربما كانت تريد أن ترفع من قيمتها وتظهر قوتها ..

وهي الآن تراني مع فتاة أجمل منها وما زالت تراني قريباً منها حتى أصبح لدي رغبة كبيرة بإغاضتها أكثر دون سبب فقررت الزواج بريمان ..

لا تسأليني عن السبب لأني حتى هذه اللحظة لا أدري ما سبب هذه الرغبة التي جعلت مني رجلا ينتقم من لا شيء ، بل ينتقم بحماقة ..

وقلتُ لك يابنتي لا أحب ذكر التفاصيل لهذا أختصر لك ..

تزوجتُ من ريمان وكانت فتاة رائعة لكني بعد الزواج منها أحسستُ بأن شيئا ما ينقصني ، كنتُ أحب أن أرى تلك الفتاة ، وكانت ريمان تعلم بقصتي معها سابقاً لكني لم أخبرها بأني حاولتُ إغاضتها ..

لم ينقصني شيء بعد الزواج من ريمان فتاة جميلة هادئة تدخل القلب وتسكنُ الروح إليها وكنتُ أكتشف فيها أشياء كثيرة لم أرها عند فتاة من قبل وكان جلّ حديث نساء القرية عنها ، أدبها واتقان عملها وبُعدها

عن الثرثرة والعداء ، رغم أنها يتيمة ليس لها أحد في الحياة إلا إنها استطاعت كسب القلوب ..

ومضت الأيام ..

زهراء :

قبل أن تكمل أريد أن أسألك سؤالاً ..

هل كنت تحب ريمان حقاً ؟

العجوز :

منذ أن رأيتها شدني جمالها و شخصيتها وطريقتها في الحديث لكني بعد الزواج أحببتها جداً ، صحيح أنني كنتُ أشعر بأن شيئا ينقصني لكن لا أعني أن ريمان قصرت في حقي بل على العكس تماما كنتُ أتمنى أن أفعل شيئا لها يجعلها أكثر سعادة في الحياة لكن الذي كان ينقصني هو

تطهير قلبي من قصتي القديمة وهي تلك الفتاة ، كنتُ وما زلت أشعر بأن فعلي معها كان حمقاً ..

أما الفتاة فلم أعد أراها كثيرا بعد زواجي فنادرا ما أراها في السوق وإن رأيتها فلا تدوم النظرات طويلاً بل تنهتي بعد لحظات ..

لكنها في النهاية رحلت عن القرية وكأنها كرهت رؤيتي فيها وسمعتُ لاحقاً أنها قد ذهبت إلى بيت إحدى قريباتها في قرية مجاورة ..

ومضت الأيام وكنتُ سعيداً جدا بريمان ، أنستني تلك الفتاة بلطفها وأسلوبها ، كانت حياتي جميلة معها فهي هادئة جدا ولطيفة وكانت تحمل أهم صفة ولم تفقد جزءا من هذه الصفة بعد الزواج ..

زهراء :

ماهي هذه الصفة ؟

العجوز :

ربما ينبغي أن أقول هو خلُق من الأخلاق إنه الحياء يابنتي ..

أتعلمين يابنتي لا شيء أجمل من الحياة في الأنثى ، البعض من النساء تفقد الحياء من زوجها بعد فترة من الزواج ، فتتصرف كما لو كانت في بيت أهلها قبل أن تتزوج ، الحياء يجعل الأنثى كما لو كانت في أول يوم تعشق فيه وتحب ..

وكانت ريمان شديدة الحياة حتى بعد سنة من زواجنا ولم تفقده ..

كنتُ محظوظاً جداً فرغم الحياة البائسة التي مرّت بها هذه الفتاة إلا إنها مازالت تحافظ على أنوثتها ..

زهراء :

إذا كانت بهذه الصفة فما هو سبب رحيلها عنك ؟

العجوز :

حدث ذلك في ليلة من الليالي ،

استيقظت فلم أجدها بجواري فنظرت حولي فلم أجدها في الغرفة أيضاً فقمت من سريري لأبحث عنها في البيت فوجدتها في غرفة من الغرف وقد أشعلت المصباح ورأيتها تكتب في أوراق منغمسة بهواجسها وكأنها لا تشعر بمراقبتي لها وحين اقتربتُ منها وشعرت بي أخفت هذه الأوراق ونظرت إلي نظرة مخيفة جدا حتى شعرت بأن أوردتي تجمدت فلم أستطع التحرك لكن بعد لحظات خفضت رأسها حياءا وأخفت الأوراق خلفها ، فطلبت منها أن أقرأ ما كانت تكتبه لكنها لم تتكلم ولم تدفع الأوراق إلي فاحترمت رغبتها لكن ذلك جعلني أفكر كثيراً في محتوى هذه الأوراق وأتذكر كلام تلك الفتاة وتحذيرها لي ..

ثم طلبت منها أن تلحق بي لتنام وترتاح ..

مرّت الليلة طويلة جدا ، لم أستطع النوم ، أنظر إلى ريمان مرة وإلى البدر من نافذتنا الصغيرة ، ويشغل تفكيري ما أخفته عني هذه الفتاة ..

ومرّت الأيام وتغيّرت الكثير من الأمور وكنتُ حذرا في تعاملي معها حتى دخل الجفاء بيني وبينها ولم تتغير هي في معاملتها بل زادت من اهتمامها بي لكني يا بنتي لا أستحق هذا الاهتمام ، وظننتُ أن اهتمامها بي لن يغير شيئا مما في داخلي ..

زهراء : هل حدث هذا كله فقط من أجل تلك الأوراق التي أخفتها عنك ؟

العجوز : يابنتي .. نحن الرجال نخفي الكثير عن نسائنا لكننا ننزعج جدا حين يخفين عنا شيئاً ، ربما ترين أن الأمر لا يستحق وهو كذلك لكن الكثير من الحروم قامت بكلمة كما وقع الكثير من العشاق بنظرة ، ربما من الأفضل أن لا نخفي شيئا عن بعضنا لكن ذلك أيضا غير صحيح ، لأنه لابد أن يكون جزء بسيط من حياتنا محاط بحدود نرسمها لا يتعداها أحد ، ولا يدخلها ..

مساحة شخصية على أن لا تكون هذه المساحة سببا في إيذاء شريكنا في الحياة ..

كنت أخرج من المنزل ولا أعود حتى المساء أنشغل مع الناس ولا أهتم بها ، وإن عدتُ إليها أكلمها كلاما ليس فيه إلا الجفاف وكنتُ أزداد غيظا حين تتصرف معي بهدوء ، وهو طبعها ..

أقسو عليها فترد علي بكلام هادئ لطيف وأحيانا تصمت حتى أهدأ وهذا ما جعلني أتغير كثيرا والحسرة في داخلي فأنا أشعر بالظلم لكن العناد أسوء مافي الإنسان وكم أورد العناد أصحابه المهالك وكل ذلك فقط من أجل تلك الأوراق ..

كنتُ أريد منها أن تريني هذه الأوراق بنفسها وكبريائي يمنعني من طلب تلك الأوراق ..

ولما رأت مني ريمان هذا الجفاء لعام كامل وأنا لا أهتم بها كما تهتم بي

خرجت من صمتها وقالت لي كلمات :

لماذا تخفي في نفسك ما يعذبك ، أخرج ما في داخلك وإن كان فيه

قسوة على من تحب ..

حينها لم أتمالك نفسي ..

قلتُ لها : ليتني لم أذهب إلى تلك الغابة ..

فنزلت الدموع من عينيها وقالت :

لا تندم على شيء فات ، يمكنني العودة من حيث أتيت ..

فلم أعلّق على كلامها وكأني رضيت بما تقول ، أعني الرحيل ..

واستيقظتُ في الصباح فلم أجدها وتركت في مكانها على السرير تلك

الأوراق التي حاولتُ قراءة مافيها ..

كانت أول كلمة قرأتها في تلك الأوراق :

(سكون الروح)

ولما انتهيت من قراءة الأوراق علمتُ بأنني قد فقدتُ جنة في هذه الحياة ..

فذهبت إلى الغابة وبحثت عنها في الكوخ القديم ولم أجدها ..

وعدت إلى قريتي وبقيت فيها سنوات لعلها أن تعود ولكن لم يتغير شيء ..

تعبتُ كثيراً يابنتي ..

أرهقتني الأيام ..

أرهقني البحث ..

تمنيت لو أراها مرة قبل أن أموت ..

فقط لأعتذر إليها ..

قلتُ قصتي باختصار ...

يابنتي .. هل لي بكأس ماء ؟

(تعطيه زهراء الماء فيشرب ثم يقوم من مكانه راحلا ومودعا ..)

مع السلامة يابنتي .. أشكركم على الغداء ...

وما زال يبتعد عن بيت زهراء حتى اختفى ..

دخلت زهراء إلى المنزل وجلست مكان العجوز فاصطدمت رجلها بحقيبة قماشية قديمة فلما فتحت الحقيبة وجدت الأوراق وكانت صفراء اللون كالمخطوطات ..

ركضت بها لتبحث عن الشيخ فلم تجد له أثرا ..

ولا تعلم في اي جهة قد رحل ..

قرأت الأوراق وقد كتب فيها :

لم أشعر يوما بالسكون في روحي حتى وجدتك ..

وذكرت في هذه الأوراق ذكرياتها السيئة قبل أن تتزوج وكانت حياتها مؤلمة جدا ومع ذلك لم تفقد أملها وهدوءها .. امرأة عظيمة ..

أما عن زهراء ..

ما زالت تقرأ ذكريات ريمان حتى أيقنت بأن الحياة لا تخلو أبداً من الأحزان والضيق والتعب وأن مصابها واكتئابها وخوفها لا مبرر له ..

وتغيرت حياتها ، تأثرت بشخصية ريمان حتى سألتها أمها يوما وقالت :

إن أمرك عجيب يابنتي ، ما سبب هذا التغيير ؟

فقالت لها زهراء :

إن أكتئب فسأعيش لوحدي كئيبة وإني لا أجد مبرراً لهذه الكآبة أما عن الخوف فالخائف يموت في كل يوم مرة أو أكثر ولا سبيل للعيش مع الخوف ، لن أخسر إن جرّبت أن لا أخاف ..

" لا تنتظر تحسّن ظروف الحياة حتى تتغير بل حسّن ظروفك بالمحاولة والتجربة وبعضا من السرور وإن كان مصطنعا .. فهذا أفضل من الحزن على شيء لا يدوم وعلى مستقبل لا نعلمه .. "

إبراهيم الشملان

صفحة الكاتب في الفيس بوك

www.facebook.com/ibrahimshamlan

تويتر وانستغرام

@ibrahim_shamlan

ايميل الكاتب

ibrahimalshamlan@gmail.com